واقع الهوية الفلسطينية في ظل تحديات العولمة

د. أحمد بشارات، د. عماد أبو حسن

جامعة القدس المفتوحة / الجامعة العربية الأمريكية

ملخص

العولمة مجموعة من العمليات المتداخلة المختلفة في درجة تأثيرها، والمتعددة في مفاهيمها، ولا يزال يكتنفها صعوبات كثيرة، وتهدف العولمة إلى تهميش الشعوب وإذابتها، وتذويب الملامح الثقافية والدينية والتراث الشعبي والقيم العرفية، وقولبتها تبعا لثقافة الأقوى، وتتشكل بذلك أمة مشوهة أو شعب منسوخ، ومنسلخ عن ذاته وواقعه.

وتهدف الدراسة إلى معرفة أثر العولمة وتأثيرها في اللغة العربيّة، والثقافة، وما يترتب على ذلك من تأثيرات في الهوية الوطنية، والسياسات الإقليمية، وكيفية تطويع العولمة والاستفادة منها والتقليل من آثارها السلبية، والمحافظة على خصوصيات الأمة وصون تراثها ولغتها ودينها، وما ينطبق على الأمة العربيّة يندرج على الشعب الفلسطيني، وتحقيقا لذلك ستتناول الدراسة تيار العولمة وأثرها في الأمور الآتية:

1. اللغة العربيّة وتحديات العولمة، وقدرة اللغة على التأصيل، والآثار السلبيّة للعولمة، والأمن اللغوي، وهيمنة الإنجليزيّة على اللغة الأم.
2. الثقافة وتعريفاتها ومحاورها، والتحديات الثقافيّة الراهنة، وكيف نتحدى العولمة ثقافيا.
3. الهوية الوطنية المحلية، وإعادة صهرها وتشكيلها ضمن الإطار العالمي الجديد، وانتقالها من الإطار الخاص إلى العام، وعولمة السياسات الوطنية، ووضع السياسات العامة للعولمة، وفقدان الفرد بذلك مرجعيته، وتلاشى الإحساس بالانتماء والهوية لديه.

كلمات مفتاحية: عولمة، هوية، سيطرة، حضارة، تأثير، انتماء، سياسات، أمة.

Status of the national identity in the light of challenges of Globalism

Globalism is a group of different , intermingled operations in respect of it's influence, and its numerous concepts. Still, it faces many difficulties. This phenomenon works on margins and liquidating the peoples , the cultural aspects, religious aspects, public heritage and traditional values according to the culture of the stronger. This results in forming a distorted nation or a copied people dragged away from itself and real situations.

The study aims at knowing the influence of globalism on Arabic language and culture and what effects it imposes on the national identity and how to steer globalism towards benefiting from it and decreasing its negative effects. It also stresses the nations privacies and keeping its culture, language and religion. To achieve this goal, the study will focus on globalism and its effects on:

1. Arabic language and globalism challenges, the language ability on originalism, the negative effects of globalism. The linguistic security and English language domination on Arabic language.

2. Culture, definitions and domains, current cultural challenges and how to challenge globalism culturally.

3. National , local identity and reforming it according to the new world frame, moving from private to public frame, globalizing the national policies and setting the general policies of globalism and thus the individual losing his background and his feeling of belonging to his identity.

المقدمة

اللغة والثقافة هما روح الأمة وعنوان هويتها، وهما من الركائز الأساسية في بناء الأمم ونهضتها، وكل مجتمع له ثقافته ولغته التي يتسم بها، ولكل ثقافة مميزاتها وخصائصها، وعرف العالم الثقافة العربية والإسلامية عندما استلم العرب زمام القيادة الفكرية، والثقافية، والعلمية للبشرية، واستمروا في مركزهم المتميز إلى القرن الخامس عشر ولما تراجع العرب والمسلمون عن مقدمة الركب الثقافي العالمي، ودب الضعف في كيانهم، وتوقفوا عن الإبداع في ميادين الفكر والعلم والمعرفة الانسانية، انحسر مد ثقافتهم وغلب عليهم الجمود والتقليد، وضعفوا أمام تيّارات الثقافة الغربية العاتية التي اثرت بقوة في أدبهم وفنونهم ولغتهم وطرق معيشتهم.

ويعود اختياري لهذا الموضوع؛ لأن اللغة وعاء الفكر؛ ولأن التنقل بين اللغات العالمية يسهم مساهمة حيّة في تحرير الذهن الإنساني المنغلق على ذاته، ويؤدي إلى الانفتاح الحضاري والثقافي على الآخرين، وهذا يؤثر سلبا على"اللغة العربية" وعلى العادات والتقاليد العربية والإسلامية، وتدخل العولمة إلى بيوتنا وإلى كل مجالات الحياة، وتعمل على دمج الكل في ثقافة الأقوى، وتحييد خصوصية ثقافة الشعوب؛ ولذلك قمت بإجراء هذه الدِّراسة.

وسوف يتناول الباحثان: تعريف العولمة، العولمة والهوية، العولمة والدولة، تهديد لغتنا الجميلة، الأمن اللغوي، الأثار السلبيّة للعولمة، التحديات التي تواجه اللغة، الثقافة ومفهومها، عناصر الثقافة، التحديات الثقافيّة الراهنة، رؤية نقدية، كيف نتحدى العولمة، كيف نتصرف أمام تيار العولمة، نتائج البحث، قائمة المصادر والمراجع.

1. تعريف العولمة:

ترتبط العولمة بالتطور التقني (منذ اختراع العجلة إلى اختراع الإنترنت) وبالتطور السياسي. فالعولمة تراكم فكري إنساني أكثر من كونها مرحلة جديدة في السياسات والثقافات العالمية، ولكن ما يميّز هذه المرحلة هو التطور التقني المتنامي والمتسارع.

وتتميز ظاهرة العولمة بالسرعة والتغيّر، والكثافة والقدرة على الاختراق والانتشار، ولها تأثيراتها المتباينة على الأفراد وعلى مستوى الدول، وتبدو مركزية، أي إن كثافة نشاطاتها متركزة في مناطق معينة من العالم، وهي أحادية الاتجاه، وهذا يعني أنّ تدافعاتها الاقتصادية والسياسية والثقافية وتداعياتها تتجه من الأقوى إلى الأضعف، وبمعنى آخر هناك قوى خارقة وقوى مخترقة، قوى قانصة وقوى مقنوصة. (نايف عبيد، 2001م، ص 53)

العولمة لغة:

العولمة مصطلح غربي، عرب به الكلمة الأنجلو سكسونية(Global–Lization) وهي مشتقة من (Globe) والتي يعرفها قاموس المورد (انجليزي–عربي) على أنها كرة أو الكرة الأرضية. وجاء في معجم (Websters) أن مصطلح العولمة: يعني إكساب الشيء طابع العالمية، وبخاصة جعل نطاق الشيء أو تطبيقه عالمياً (محمد سيد فهمي، 2007،ص:17)

وفي العالم العربي فإن تداول مصطلح "العولمة" بدأ بعد سنوات قليلة من تداوله في الأوساط الغربية وفي وقت مازال يدور حوله جدل على مستوى العالم(عبد المنصف حسين رشوان، 2006،ص:12).

ولعلّه من قبيل الاتّفاق أن تكون (العولمة) على صيغة (فَوْعلة)، ولكنها قد لامَست لفظا عربيا مقابلا لِكلمة (Globalization)، وجرى أهل العربيّة على تداول هذا المصطلح بِرؤى ومواقف متعددة، فهي عند بعض أصحاب العقلانية: واقعة لا نملك إلاَّ أن نَعيشها وأن نتقلب بين ظهرانينا. (نهاد الموسى، 2006م، ص163).

اصطلاحا:

العولمة: نظام أمريكي يقوم على نفي الآخر وثنائية السيادة للطرف الأقوى، والتبعيّة للطرف الأضعف، واحتكار مصادر القوة العسكرية والاقتصادية والتكنولوجيّة من جانب الأقوياء، واستخدامها ضد الضعفاء. (محمد حسين أبو العلا: 2004م، ص 39)

وعرّفها عبد المنّصف رشوان على أنها ظاهرة تتداخل فيها أمور الاقتصاد والسياسة والثقافة والاجتماع والسلوك، يكون الانتماء فيها للعالم كلّه عبر الحدود السياسية والدوليّة، وتحدث فيها تحولات على مختلف الأصعدة. (عبد المنصف رشوان: 2006م، ص 16). ويعرفها كل من جون وستيف بأنها تكثيف العلاقات الاجتماعيّة عبر العالم حيث تترابط الأحداث المحليّة المتباعدة بطريق وثيقة كما لو كانت تقع في مجتمع واحد. (جون وستيف ،1997م، ص 10)

ويمكن أن تعني العولمة كذلك تعميم زحف القيم المادية والرمزية على مستوى الكوكب ويمكن القول بأن هناك أربع عمليات أساسية للعولمة وهي على التوالي:

1. المنافسة بين القوى العظمى.
2. الابتكار التقني أو التكنولوجي.
3. انتشار عولمة الانتاج.
4. التبادل والتحديث. (فلاح كاظم المحنة، 2006،ص:12)

العولمة هي نمط سياسي اقتصادي ثقافي لنموذج غربي متطور خرج بتجربته عن حدوده لعولمة الآخر بهدف تحقيق أهداف وغايات فرضها التطور المعاصر بمعنى أن العولمة هي ظاهرة قادمة من الغرب من مجتمعات متقدمة حضارياً ومتجهة إلى مجتمعات نامية ومتخلفة، والتعامل معها بنجاح يتطلب بناء الذات، والارتقاء بها في المجالات المختلفة حتى يكون التعامل معها إيجابياً (علي غربي، بلقاسم سلاطنة، اسماعيل قيرة، حميد خروف، 2003، ص:197).

ونخلص إلى القول إن مفهوم العولمة يعني مجموعة من العمليات المتداخلة، والتي تختلف في درجة التأثير من أجل صقل العالم بصبغة واحدة، يكون العالم يتحرك في عقليتها المسيطرة، وثقافتها، فهي لغة واحدة وفكر واحد يحكمها قانون القوة والهيمنة وفرض السيطرة.

2. العولمة والهوية

ترتبط الهوية بالأصالة، ويعرفها علي بن محمد بأنها: التمايز عن الأغنياء في النواحي كافة فهي الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق، أما (جان فريمون) فقد عرّف الهوية بأنها: إحساس متماسك بالذات والقيم، وهي تعتمد على قيم مستقرة. (عمرو خاطر عبد الغني وهدان، 2010م، ص115)

فالهوية شعور بالكليّة والاندماج ومعرفة ما هو خطأ وما هو صواب، ويعتبر محمد قطب العولمة أسوأ أشكال الإمبريالية، حيث إنها صورة متعجرفة تسحق الناس وتقضي على هويتهم وتحولهم إلى أتباع وعبيد، وهي ضد المسلمين تنشر خبثها في السياسة والفكر والدين والأخلاق والثقافة والعادات والتقاليد، والإسلام هو الدين الأمثل الذي يدعو إلى التنوع، بينما العولمة تفرض نموذجاً واحداً، وهو النموذج الأمريكي. (عمرو خاطر عبد الغني وهدان، 2010م، ص115)

وإن ما تقوم به العولمة ثورة ضد قوانين الهوية، وخرق للقوانين المتفق عليها بين البشر، ما يهدد السلام والأمن والاستقرار في العالم، ومن الغريب حقا أن يعتزّ الغرب بهويته، ويرفض في الوقت ذاته حق الشعوب الأخرى بالاعتراف بهويتها أو الاعتزاز بها. (المرجع السابق، ص116)

واللغة العربية هي الأساس المتين للثقافة العربية الإسلاميّة، فهي الوعاء الحاوي لمنجزات الحضارة العربيّة الإسلاميّة، وتراثها الثقافي، والديني والعلمي، وهي المعجم الذي يُفسّر مفردات التاريخ الثقافي والحضاري، وهي الماضي الذي نستمد منه وجود حاضرنا، ونستشرق آفاق مستقبلنا، واللغة رابطة اجتماعيّة فكرية في الدرجة الأولى. (خالد عبد الرؤوف جبر، 2005م ، ص233)

3 ـ العولمة والدولة:

تبني العولمة نظامها على أنقاض الدولة الوطنية، حيث يجري تفتيت التكوينات السياسية في الدولة إلى دويلات صغيرة ومهزوزة ومبتلية بالكوارث والصراعات والأزمات، وغير المتفقين مع هذا الرأي يقرون بأن العولمة إن لم تؤد بالضرورة إلى تفجير الدولة الوطنية لمصلحة جماعات تحت وطنية أو فوقها فإنها على الأقل تؤدي إلى تغيير جوهري في مضمون وظيفة الدولة الوطنية، وتبعا لذلك تضع الدولة نفسها في زاويتين مختلفتين: زاوية تكبيريّة تجعل للهوية أبعاداً أممية أو عابره للحدود مثلما هو الحال للهوية الإسلاميّة، وزاوية تصغيريّة تربط الهوية بجماعة قد تكون متناهية في الصغر، وهذا يعني أن الدولة حامية لنظام العولمة الذي يُعنى برفع الحدود والحواجز من أمام الشركات والمؤسسات والشبكات الدولية لتمارس سلطتها بوسائلها الخاصة، ولتحل محل الدولة في ميادين الثقافة والإعلام.... الخ، والدولة الأم قامت على التراث القومي أو الوطني الذي قامت عليه ليطلى بطلاء العولمة. (عبد المنصف حسين رشوان، 2006م، ص23)

والخطاب العربي لم يصل إلى حدّ القناعة بتفكيك الدولة القومية، وإنّما أشار عاصم خفاجي إلى أن العولمة ستفتت البعد القمعي للدولة، ويقول إن التطور سيكون في أجواء ديمقراطية، وهذا يعني أن الدولة الأم ستحافظ على كيانها الثقافي والجغرافي والحضاري وتكيف نفسها، ويخلص إلى أن الحضارات الرئيسه عصيّه على التعولم بالمفهوم الأمريكي. (عبد المنصف حسين رشوان، 2006م، ص24)

وترتبط الهوية واللغة ارتباطا وثيقا، وتسعى العولمة إلى إسقاط الحواجز اللغوية خط الدفاع الأول عن الهوية من خلال سيادة الإنجليزية، بالرغم من التحدي العنيف للهوية الإسلامية الذي بدأ مع الحملة الفرنسية على مصر.

إن الحضارة العربيّة بامتدادها العالمي الجديد تهتدي بروح القوة، الروح الغاوية التي ترى الوطن متمثلا بأي مكان في الأرض يمكن السيطرة عليه بمنطق القوة والحرب، فالحياة تجري على وفق معادلة الأقوى، وهذا يعني أن الروح الغربية تتجسّد في معاني الغلبة والصراع، والتحدي، والانتصار والقوة، وهو ما يتماشى مع قول (اشبلنجر) الذي يعتقد أن الحرب هي الخالقة لكل عظيم. (عمرو وهدان، 2010م، ص117)

ولا أحد ينكر مدى القلق الذي يصاحب العولمة، فقد أسست التحولات السياسية والثقافية والاقتصادية والمعلوماتية للحظة حضارية تزامن بروزها مع نهاية القرن العشرين، وبداية القرن الواحد والعشرين، إنها لحظة شديدة التداخل مليئة بكل الاحتمالات المقلقة ومن المحتمل أن تؤدي إلى صدام الحضارات الذي ربما يؤدي إلى اندلاع حروب أكثر عنفاً ودموية من كل الحروب التي شهدها العالم من قبل، والحقيقة أن الولايات المتحدة تعاظمت قوتها في الشأن العالمي وأصبحت هي المسيطرة عالمياً حيث تمتلك أكبر قوة نووية وأكبر قوة عسكرية

وتسيطر على المؤسسات والمنظمات الدولية. (سامي ابو ظريفة، الاتحاد العام لنقابات فلسطين، 1997م، ص74). ويشتدّ الصراع عندما يدين الغرب الفكر الإسلامي الحديث في مسألة حقوق الإنسان، ويقول المستشرق(فرانس) في كتابه (فكرة الحريّة في الإسلام): إنّ المسلمين لا يملكون مفهوما للحريّة الإنسانيّة. (لطفي منذر، 2007 م، ص 288)، وتناسى أن ظهور الإسلام كان حدثا عالميا ترتب عليه نتائج هائلة، تجاوزت الحدود الجغرافيّة، وظلت تفاعلاته تنتقل من جيل إلى جيل. (عبد العلي الجسماني: القرآن وعلوم الإنسان، 2008م، ص 149).

وتتشكل الهوية من عدّة عناصر، وتتجذب الأمة العربية تحت عامل الثقافة واللغة والدين والقومية، وتغلف هذه العناصر الثقافة التي لا تجد سبيلاً لها الاّ اللغة، ولذا سنقصر هذا البحث على الثقافة واللغة محوري الهوية العربيّة، مع الإشارة إلى أن اللغة لا تنفصل عن الدين أو تتباعد عنه، بل تشكل في أبسط حالاتها خط الدفاع الأول عنه وعن هوية الأمة وأصالتها وثقافتها.

4. اللغة العربية وتحديات العولمة

4 ـ 1 قدرة العربية على تأصيل العلم الحديث:

ومواكبة التطور يحتم علينا تأصيل الكلمات أو تأثيلها، والتأصيل والتأثيل بمعنى واحد في اللغة العربيّة، وهو أن نجعل للشيء أصلاً ثابتاً يُبنى عليه.

وهذا يعني ترسيخ البنيان العلمي القادر على النهوض بالعلم في المجتمع العربي والإبداع فيه بغية الإسهام في الحضارة العالميّة، وهذا البنيان العلمي لا يخرج عن وضع المصطلحات وتوحيدها واستعمالها وتأسيس اللغة العلمية العربيّة، أو ما نسميه استيعاب العلم الحديث، فإذا تحقق هذا الاستيعاب تأصّل العلم، وبدأ المجتمع يتقدم ويبدع.

إن إثراء العربيّة وانتشارها في أطراف المعمورة، ثمّ تعرضها فجأة لعصور التجمّد أدّى إلى تفريق الشمل، وإلحاق الضرر البالغ في نهج توحيد المؤسسات (ابراهيم بدوي الجيلاني، 1997م، 308). يضاف إلى ذلك أن لغة العرب لم تنته إلينا بمفرداتها ومعانيها، والذي جاءنا من العرب قليل من كثير. (أحمد بن فارس، 1997م، ص 36).

والحق أن هناك خللا في استيعاب العلم، لكنه خلل غير لغوي، إنه خلل سياسي، يتجلّى في عدة أمور منها: التشبُّث باللغات الأجنبيّة، وفي ضعف الأمة العربيّة، وغالباً في المناخ غير المواتي للإبداع. (سمير

روحي الفيصل، 2007م، ص 122). وفي قلب هذا التقدم العلمي، يبقى السؤال: ما العمل؟ ونتصور أن نعمل على:

1. مواكبة العصر: وذلك بامتلاك أدوات العصر المعرفية والتقنية امتلاكا إبداعياً وإتاحتها بغير قيود.
2. التجديد: وذلك بإشاعة الرؤية العلميّة العقلانية وتعميقها في مناهج التعليم ووسائل الإعلام.
3. الثقة في الشعب: بتحقيق المشاركة الديمقراطية في اتخاذ القرارات المصيرية الخاصة بواقع العالم العربي ومستقبله، وضمان الحقوق الفردية والاجتماعية لأبنائه دون تمييز. (نايف عبيد، 2001م، ص 52).

4 ـ 2 الآثار السلبية للعولمة:

ينظر معظم مفكري العالم الثالث إلى العولمة على أنّها (أمركة العالم) وتهميش الشعوب وإذابتها، وجعلها نسخة ممسوخة لها، لتنسلخ الشعوب عن ذاتها، ولخصوا الآثار السلبيّة بالجوانب التالية: (عبد المنصف رشوان، 2006م، ص47)

1. سحق الهوية، والشخصية الوطنية المحليّة، وإعادة صهرها وتشكيلها في إطار هوية عالميّة وشخصية كذلك.
2. سحق الثقافة والحضارة المحليتين، وإيجاد حالة اغتراب ما بين الإنسان والفرد وتاريخه الوطني، والموروثات الثقافيّة الحضاريّة التي انتجتها حضارة الآباء والأجداد.
3. سحق المصالح والمنافع الوطنية خاصة عندما تتعارض مع مصالح العولمة.
4. انتهاك الخصوصيّة الوطنيّة واستباحتها بالكامل، وتحويل الوطن إلى كيان ضعيف غير متماسك، فالخاص الوطني بتعقيداته وما ينطوي عليه من نماذج تقليدية اجتماعية (قبائل، عشائر، تعصب، انحياز، أقليات، أغلبيات، طوائف دينية، الثقافية) أصبحت ضعيفة أمام التيار، وأصبحت هامشية التأثير لا تملك الوقوف أمام تيار العولمة.
5. السيطرة على الأسواق المحلية.
6. فرض الوصاية الأجنبية من منطلق كون العولمة مصدرها أجنبي، وهذا الأجنبي يمتلك القوة، ومن ثم إذلال ما هو محليّ، وممارسة القهر عليه حتى يتوقف ويستسلم لتيار العولمة.
7. هدم النظم المحليّة؛ لأنّ العولمة تجد قوى رفض لهذه الأنظمة تؤدي في النهاية إلى تفكيك هذه النظم المحلية من الداخل. (عبد المنصف رشوان، 2006م، ص 48 ـ 51)

4 ـ 3 تهديد لغتنا العربيّة:

لا يخفى أن هناك أزمة تعيشها لغتنا العربيّة حتى قبل أن تهب علينا رياح العولمة، وتتمثل ملامح هذه الأزمة في: الإقصاء المستمر للغة العربيّة عن حياتنا بصورة عامة وبمظاهر شتى منها: انسحاب اللغة الفصحى من حياتنا اليومية في خطاباتنا: الشفوية والمكتوبة والرسميّة، وفي مؤسساتنا، والسماح باستخدام اللهجات العامية المحلية في تلك الأجهزة الإعلاميّة، وشيوع استخدام اللغات الأجنبيّة في أسماء المحلات التجارية والإعلانات والمؤسسات، وانتشار المدارس الخاصة والعامة التي تدرس العلوم باللغات الأجنبيّة، وإهمال الدراسات والبحوث المتعلقة بمعالجة اللغة بوساطة الحاسوب، وحالة التبعيّة اللغويّة باعتبارنا مجرّد متلقين ومستهلكين، فالمنتجات في أسواقنا تحمل أسماء أجنبيّة. (عبد الرشيد عبد الحافظ، 2005م، ص 48)

إنّ الاستعمار بعد أن يئس أن تكون له ركائز في أرضنا فكّر وقدّر، وخطط لأن تكون له ركائز في نفوسنا وأفكارنا، ووجد ذلك أسهل عليه وأخْفى علينا، فاختفى بمظهره العسكري الساذج المكشوف، ثمّ بمظهره الاستشاري الواضح، ليظهر بثوب لا ننكره، ولسان لا نتأذى بظاهره، ولذا ركزّ على اللغة العربيّة لأنها أقوى من وحدتهم السياسيّة. (رشاد محمد سالم، 2006م، ص 235)

ونحن لا ننكر الاتجاه الذي يغار على العربيّة، ويقف مدافعاً عن سلامتها، ولكن ما زال الوضع اللغوي شديد الحاجة إلى دفع حيوية أكبر وإلى تخطيط للإفادة من ثورة الاتّصالات ووسائله الحديثة، ثم تحصين النظام التربوي، وبناء الإنسان الحرّ الواعي الذي يقرن الوعي القومي بالوعي العالمي دون تنازل عن مقومات الأصالة والهوية، نحتاج إلى خطة مقاومة لا مستسلمة للعولمة المركزيّة والهيمنة، تسهم بتعزيز الثقافة من خلال تعزيز حقوق الإنسان العربي، وصون لغته وحضارته. (زهير غازي زاهر،2000م، 116).

وتهدف العولمة إلى تحييد اللغة العربيّة، وإقصائها عن الساحة الفكرية والثقافيّة على الرقعة الجغرافيّة التي يعيش عليها العرب الناطقون بها، وذلك بإحلال لغة جديدة في عالمهم، وهذه اللغة هي لغة المنادين بالعولمة تلك اللغة هي اللغة الإنجليزيّة. (محمد يوسف الهزايمه، 2012م، ص 19)

وبلغ الغلو بإحدى المقالات في صحيفة (نيويورك تايمز) أن تتخذ لنفسها عنواناً: الشبكة العنكبوتيّة العالمية، ثلاث كلمات إنجليزية ثم تمضي معلقة: إذا أردت أن تبلغ أقصى الإفادة من الإنترنت فإن لك طريقة حقيقية وحيدة: تَعَلّم الإنجليزيّة. ويخلص (ديفيد كريستال) إلى سؤال خطير في هذا السياق وهو: هل تصنع الإنترنت التي تسيطر عليها الانجليزيّة نهاية للألسن الأخرى. (نهاد الموسى،2006م،ص 172).

4 ـ 4 الأمن اللغوي

إذا كان إغناء العربية ومسايرتها للتطور هدفاً جليلاً، فإن حماية العربيّة هدف له الاولوية في زمن يستهدفها الجاهلون، كما يستهدفون الحضارة، إننا كأمة عربيّة دائماً نتحدث عن الأمن الغذائي والاجتماعي... ولا نتحدث عن الأمن اللغوي والثقافي. (خالد عبد الرؤوف الجبر، 2005م، ص317)

إن حضارة الإنسان العربي بدأت من لغته، وأثرها في تحضُّره الفكري والوجداني، وكما قال ابن فارس: كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث أبائهم في لغاتهم، وآدابهم، ونسائكهم، وقرابينهم، فلما جاء الله تعالى بالإسلام حالت أحوالهم، ونسخت ديانات، وأبطلت أمورا، ونقلت من اللغة ألفاظا من مواضع إلى مواضع أخرى لزيارات زيدت، وشرائع شرعت، (نهاد الموسى، مرجع سابق، ص316)

وحسبنا أن نفهم قول رسولنا الأكرم في أهمية اللغة في قوله:»ليست العربيّة لأحدكم بأب ولا أمّ ، وإنّما هو اللسان،من تكلمّ العربيّة فهو عربي». وهذا الحديث بوابة الأمن والأمان، فاللغة تحمي الهوية من الذوبان، وطريق التواصل، وجمع الأمة على العربية يكون بلسانها.

ومنذ أن ابتليت البلدان العربيّة بالاستعمار الأوروبي كان التحدي الحضاري أقوى الأسلحة، وكان موضوع اللغة من أكثر جوانب هذا التحدي وضوحاً فلقد باتت اللغة مُهددة بالغزو من اللغات الأجنبية، فَنَصَب الصدام الحضاري للعربية الفخاخ، وحاك في طريق نهضتها الشراك ووضع الخطط، كي يمنعها من أداء وظيفتها في المجتمع، وحاول استبدالها، وحول التعليم باللغات الأجنبية، وجعل اللغة الدخيلة هي لغة الخطاب والتجارة والتعليم، وبرزت المخاطر على اللغة من عدة جوانب، ولذا يتوجب علينا دفع المخاطر لتحقيق أمننا اللغوي، وذلك من خلال وضع خطط لدرء المخاطر التالية. (عمرو وهدان، 2010م، ص98)

أولاً: جعل الاستعمار لغة الدواوين هي اللغة الأجنبية وأنشأ طبقة تدين لهذه اللغة من الناحية الثقافية واللغوية، وأنشأ طبقة متعلقة بالغرب، وتنتمي إليه ثقافيا، وتنظر بازدراء إلى ثقافتنا العربية والإسلامية، ولغتها العربيّة، فلم يضمن ولاءها اللغوي وحسب، وانّما ضمن ولاءها الأيديولوجي، ما أحدث انشقاقا في صفوف الشعوب، وقضى على وحدتها الوطنية، وتسبب في إثارة الفتن.

ثانياً: العالم العربي وفلسطين على وجه التحديد تعاني أوضاعا تشبه إلى حدّ كبير أوضاع البلاد العربيّة في نهاية القرن التاسع عشر، حين دخل الاستعمار إلى المشرق العربي، وفرض لغته، وأغرى بها الجماهير، وجعل إجادتها شرطاً من شروط الحصول على لقمة العيش، وجعلها لغة الصفوة والحظوة، وأقصى العربية عن الإدارة والتعليم والمجالات الحيوية. (عمرو وهدان، 2010م، ص98)

ونحن في وطننا فلسطين، أوقعت علينا الدول الاستعمارية ما أرادت، فالإنجليزيّة مجال واسع لكسب لقمة العيش، والتعامل مع المؤسسات المانحة شرط من شروط العمل، واللغة الإنجليزية والفرنسية تدرس في مدارسنا جنبا إلى جنب مع اللغة الأم، ومما يزيد المخاوف أن المحتل وصل به الحد إلى التدخل المباشر في شؤون حياتنا وتعبئة النماذج بلغته، والحديث دائماً يدور حول مصطلحات أوجدها لتعيش في عقولنا، فأخذت طريقها إلى الشارع والبيت لتصبح جزءاً من منظومة اللغة المستعملة.

ثالثاً: المنهاج والمدارس التي تدرس باللغات الأجنبيّة:

خُيّل للبعض أن إتقان الأجنبيّة مفتاح سحري للدخول إلى الحضارات العالمية وملامسة التقدم الحضاري، فأسرعت البلدان إلى إعطاء تراخيص للمدارس لتدرس بلغات أجنبيّة، فدخل خطر المستعمر من أوسع الأبواب، وشرعن وجوده بثقافته وأفكاره، فهاجم الأمة من الداخل، وجعل لها مناصرين من أبناء الأمة.

غير أن المخلصين من أبناء العروبة طالبوا بعودة اللغة إلى مجال التعليم، ووقفوا أمام أصحاب النظرات الضيقة، ففي مصر مثلاً كان سعد زغلول مع عدم الموافقة على عودة اللغة العربيّة إلى المدارس، وقال: الحكومة لم تقرر التعليم باللغة الإنجليزية الاّ لتقوي التلاميذ فيها، ويمكنهم الاستفادة من المدنيّة الأوروبيّة، ويفيدوا بلادهم. وهذه الإساءة إلى العربية والشرعية الاستعمارية تكشف عن ضيق أفق، فاللغة أهم مظاهر السيادة، فإذا أسْتُغني عنها بلغة وافدة صارت الهيمنة اللغوية لغير اللغة الأم ومن ثم تسقط الهوية، ويضيع الإطار والسياج المنيع للأمة.

فالنظم التعليميّة العربية نظم تقليديّة تابعة كلّها للنظام السياسي، تعمل وفق توجيهاته ورغباته وأوامره، فالمشاركة الشعبية في المناهج تخطيطاً وتمويلاً وتطويراً لا تزال غائبة عن معظم النظم العربيّة، فالنظام التعليمي يعكس تطلعات الحكومة. (سامي محمد نصار، 2005، ص196)

والمعلومات التاريخية لها دور كبير في تعميق شعور الأفراد بحقهم وشرعيتهم، والمنهاج العربي فيه تهميش للقضية الفلسطينية وللحق العربي في فلسطين. (سامي نصار، 2005، ص198)

والواقع أننا وجدنا أنفسنا مقيدين بشروط المحتل، وابتعد المنهاج عن المصطلحات والمسميات الوطنية، ولم يتعرض لتاريخنا كثيراً، ما ينعكس سلباً على أجيالنا الواعدة. ويخلق لديهم الشعور بأنهم ليسوا أصحاب حق، وبعض الدراسات تشير إلى نقص شديد في المعلومات المقدّمة للطلاب العرب عن القضية الفلسطينية، والحق العربي في فلسطين، وهذا يجعل العربي غير قادر عن حقّه، ويؤدي إلى اقتناعه بالمقولات الاسرائيلية. (سامي نصار، 2005، ص198)

رابعا: والفلسطينيون يختلفون عن أمتهم العربيّة يتميزون عنهم بأنهم لا يزالون تحت الاحتلال، واللغة العربية تُهاجم من أكثر من جهة، فالعبرية والإنجليزية والفرنسية وغيرها من اللغات، وتدخل هذه اللغات الوسط الاجتماعي بطرق كثيرة، ويتم محاربة اللغة الأم بطرق أكثر خطورة من احتلال الأرض، فهناك تهويد لأسماء الأماكن والمدن، ولغة دولة محتلة تفرض نفسها بلغتها ومعاملاتها، ودخلت أسماء الأماكن والمحلات التجارية والشوارع لتأخذ أسماء بغير لغتها الأم انّها حرب التأصيل وترسيخ هوية المحتل، الذي لم يكتف بسرقة الأرض والحضارة، بل طمس الفكر بأفكار لا ترتبط بالواقع.

إن الذين ظنوا أن اللغات الأجنبيّة هي الطريق الأمثل للتقدم، مخطئون، ففرنسا دافعت عن لغتها، وأنشأت رابطة الدفاع عن اللغة الفرنسية، واسبانيا بلد السياحة لم يغيّروا لغتهم من أجل السياحة، واليابان بدأت نهضتها بشتى المجالات مع أنها ضعيفة بالإنجليزية إلاّ أنّها من أكثر البلدان تقدماً، وما انجزته هذه الدولة على هذا الصعيد قد أذّهل العالم.

5 ـ التحديات التي تواجه اللغة العربيّة:

5 ـ 1 التحدّيات الخارجيّة:

نقصد بالتحديات الخارجيّة التحديات القادمة من الغرب الطامع، وتلك الإجراءات المتخذة بحق العربيّة، وإقصائها من ساحة الحديث والتأليف، ومن الباب تسللت أمواج العولمة الثقافيّة لتنال من ثقافتنا ولغتنا العربيّة، وعمل ذلك من اتجاهين: (محمد يوسف الهزايمه، 2012م، ص 131 ـ 137)

أولاً: زعزعة منظومة اللغة العربيّة: إن العبث بتركيبة اللغة العربيّة يعني الإبقاء عليها شكلا بلا مضمون، وعمل على ذلك من خلال:

- خلخلة بنية العربيّة من خلال إشاعة العاميّة، والدعوة إليها بصراحة، وتارة يدعو إلى التوسط بين العاميّة والفصحى، وأوردوا الحِجَج في صعوبة العربيّة بعجزها عن تأدية أغراضها الأدبيّة والعلميّة، وذهبوا إلى قطرنة اللغة أي إخراجها إلى ثوب آخر مختلف بمعنى كل إقليم له لغته الخاصة به بناء على اللهجات، وقد دعا أحمد لطفي السيد إلى تمصير اللغة العربيّة.
- تغيير الحرف العربي: ظهرت جماعات في مطلع القرن الماضي تطالب بتغيير الحرف العربي، فمثلاً (كمال أتاتوك) نادى باستبداله بالحرف اللاتيني. (محمد يوسف الهزايمه، 2012م، ص 131 ـ 137)
- صرف الناس عن الاهتمام بالأدب العربي القديم، ويهدفون من ذلك لصرف العناية عن الماضي العربي وتاريخه وعلومه.

ثانياً: الحطّ من منزلة دور العلم: وتمثل ذلك من خلال التدخل في مناهج التعليم والمداس العربيّة، وتقليل رواتب مدرسي العربيّة كما فعل (دنلوب) رسول الدوائر الغربيّة الهادفة إلى اقصاء لغتنا العربيّة، إذا جعل رواتب مُدرسي العربية منخفضة أثّر في الجانب الاجتماعي لتلك الفئة. (محمد يوسف الهزايمه، 2012م، ص 80 ـ 89)

5ـ 2 التحديات الداخليّة:

سَنَقتصر على تناول تحديات الصعيد الرسمي العربي والمقصود بالذات المؤسسات التي تأخذ ترخيصاً من الجهات الحكوميّة في الدول العربيّة لتقيم على الأرض لتقديم خدمات في ظاهرها تسهم في دفع عجلة التعلم، وأهداف أخرى تخص البلد الأجنبي تصب في خدمة العولمة، ومن المؤسسات التي تعمل في هذه التوجهات:

- المؤسسات التعليمية الأجنبية في الوطن العربي، فهي تؤدي إلى ترويج للغات الأخرى ونشرها، ونشر ثقافة الأجنبي.
- المؤسسات الإعلاميّة العربية الفضائية المنفلتة، فالإعلامي في هذه المؤسسات يقدم لغته بلهجة متعثرة الحروف والتراكيب، ويخلط ين العربية والفرنسية والانجليزية ولهجات محلية أخرى، ولا يعطي القواعد العربيّة أية أهمية. (محمد يوسف الهزايمه، 2012م، ص 103 ـ 112)

6 ـ هيمنة الإنجليزيّة وتهديد اللغات المحلية

لا يقتصر خطر الإنجليزيّة على العربيّة، فحسب، بل تعاني الشعوب من هذه الهيمنة، ولعل فرنسا تكون أكثر الدول مقاومة للانجليزيّة وهيمنتها، وقد شرعت قوانين لحماية الفرنسيّة من سطوة الإنجليزيّة، فمنعت استخدام الإنجليزية في معظم مجالات الحياة الفرنسية، كالإعلانات والندوات والاجتماعات... الخ. ومن أبرز الأمثلة على ترابط اللغة والهوية القومية ما جرى في يوغسلافيا السابقة، إذ لما تداعت هذه الدولة عام 1990م، بدأ الصرب يميزون أنفسهم باللغة الصربيّة.

ومن قبيل المفارقه أن تجد في الولايات المتحدة نفسها، وهي قطب العولمة الأوحد ضجة حول استخدام اللغة الانجليزية، كلغة رسمية ومن الاعتراضات على ذلك أن استخدام لغة شائعة

(الإنجليزيّة) لا يضمن تجانس الأمريكيين عرقيا، إذ تضم أمريكا أجناساً مختلفة. (خالد عبد الرؤوف الجبر، 2005م، ص129)

وتنادى الأوروبيون إلى خطر الانجليزية على لغاتهم المحلية، وعقدوا المؤتمرات، وتتلخص معظم البحوث حول آثار الانجليزيّة على اللغات المحلية، في وسائل الإعلام والترجمة، والتواصل الاجتماعي.

إذا كان هذا هو حال اللغة العربية في مجمل الوطن العربي فهي في فلسطين أسوأ حالاً؛ فهي واقعة بين مطرقة الإنجليزية وسندان العبرية في ظل الاحتلال البغيض الذي يحاول طمس كل معالم العروبة في هذا القطر الصامد. ومما يعقد الأمر ويجعل مهمة الحفاظ على العربية عسيرة هنا، ذلك الاعتماد المقيت على الدولة العبرية في كثير من متطلبات الحياة اليومية، ومنها العمل والمنتجات، سيما التي يكثر من شرائها الأطفال الذين هم في طور البناء ومنه البناء اللغوي. ومن الكلمات العبرية التي تشيع على ألسن العامة والخاصة ا"مخصوم" ومقابلها العربي حاجز وا"سيجرا" ومقابلها العربي منطقة مغلقة وا"منوفا" ومقابلها العربي رافعة، وهذا غيض من فيض، فلسنا هنا بصدد البحث في الكلمات العبرية التي دخلت العربية. (يحيى جبر وعبير حمد، بحث منشور، 2009م، 6ص)

واللغة العربيّة هي قوام الأمة، وقوام أبنيتها التاريخيّة والحضاريّة والقوميّة، والسياسة التي تمارسها اسرائيل تجاه اللغة العربيّة، هي سياسة إقصاء وتهميش، وإجبار الطلبة العرب على تلقي علومهم بالعبريّة أسوة بغيرهم من الطلبة الوافدين للدراسة في الجامعات الاسرائيلية. (هاري نهر، 2009م ، ص 23)

من مظاهر هيمنة الإنجليزيّة:

هيّأت العولمة للإنجليزية أن تنشر وتشيع بمعجم يشبه أن يكون كونياً، وهذا نجده في العربيّة، وهو معجم يبدأ برموز الحياة اليوميّة الأولية في التحية (Hi)، والشكر (Thank you)، والوداع (Bye)، والموافقة (Ok)، ووعد اللقاء (See you soon)..... الخ ويمتد إلى رموز الأطعمة (Chilli)، (Pizza Hot house)، وأخذت الألبسة بعض المسميات، مثل: (Jeans) و(T–shirts) ووسائل الاتصال: (Mobile) و(Message) و(Internet) و(Save) و(Format) حتى يسمي العالم ب (Mc Communication) وهذه الألفاظ لم تغظ العرب، وحدهم فبعض المفردات يستخدمها الفرنسيون مع أن لها نظائر في لغتهم. (نهاد الموسى، 2006م، ص 164)

والناظر في تشعبات العولمة واللغة العربيّة يرى حقيقة واحدة مفادها أن اللغة العربية هي الهدف، والسهام التي تتناولها كثيرة، ومن المؤسف حقاً أن بعض التحديات والعقبات هي من صنع أنفسنا، وتبقى لغتنا راسخة رسوخ الجبال، محفوظة ومحمية بالرسالة التي جاءت بها. قال تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» (يوسف، آية 2).

7. الثقافة

7 ـ 1 مفهوم الثقافة:

تجاذبت العلوم الاجتماعية دراسة الثقافة، وقد أوضحت الجهود المختلفة صعوبة فهم الثقافة بعيداً عن المجتمع، وتزخر الدراسات الاجتماعيّة بعشرات التعريفات للثقافة، ومن التعريفات التي ذكرت تعريف (تايلور) الذي يعرف الثقافة بأنّها ذلك الكل المركب من المعارف والعقائد والفن والأخلاق والقانون والأعراف، وكل ما اكتسبه الإنسان بوصفه عضوا في مجتمع ما. والثقافة هي ذلك الكل الذي يُنتجه الإنسان، وهي تجمع بين ما هو قومي خاص بها، وما هو إنساني مشترك بين مختلف الخبرات الإنسانية، ويمكن القول: إن الثقافة هي الطريقة في الحياة. (محمود عرابي، 2006من ص27)

والثقافة لغة من ثقف الشيء أي: حذقه، وتدلّ على سرعة التعليم. (اللسان، مادة: ثقف). وهي تعني كثيراً من الدلالات فهي الأساس في التفاعل الإنساني، وهي تنتقل من جيل إلى جيل في المجتمع وتتراكم نتيجة هذا الانتقال، وهي تتمثل في المعاني التي يُعبِّر عنها الأفراد بلغتهم، واللغة إذن ليست فطريّة. (عثمان فاروق السيد، 2006، ص9).

وتشير تعريفات العولمة الثقافيّة أنّها نمط سياسي ثقافي اقتصادي... الخ لنموذج عربي متطور خرج بتجربته عن حدود لعولمة الآخر بهدف تحقيق أهداف وغايات فرضها التطور المعاصر، بمعنى أن العولمة هي ظاهرة قادمة من الغرب من مجتمعات متقدمة حضارياً ومتجهة إلى مجتمعات نامية ومتخلفة، والتعامل معها بنجاح يتطلب بناء الذات، والارتقاء بها في المجالات المختلفة حتى يكون التعامل ايجابيا، فالعولمة الثقافيّة حركة لدمج العالم، وربطه بروابط اقتصادية وثقافية وسياسية وتجارية واستثمارية، ليَتَشَكّل في النهاية عالم موحد الثقافة وذو سمات موّحدة. (علي عربي وآخرون، 2003م، ص197)

وتشمل التعريفات الثقافة على عدة خصائص للثقافة اهمها:

1. أهمية المحتوى الفكري في تنظيم الأفعال الإنسانية كحافز للفعل والسلوك.
2. الثقافة سلوك مكتسب يتم اكتسابه بطرق عدّة منها: الهجرة، والتنشئة، وسائل الإعلام.
3. تشمل الجانب المادي وغير المادي، مثل: العقائد والأخلاق والضبط والسلوك والدين واللغة والطعام والشراب والغناء والملبس.
4. تجمع بين ما هو عام وما هو خاص أو فرعي يتعلق بفئة معنية.
5. إنها سلوك حياة تحدد مواقف الإنسان واستجاباته في المواقف المختلفة (محمود عرابي، 2006م، ص28)

7 . 2 عناصر الثقافة:

لكل ثقافة عناصرها، وعناصرها التي تشكل في جملتها الشخصيّة الثقافيّة، وتتمايز الثقافات ويصبح لكل أمة طابعها الخاص، والثقافة الغنية الحيّة، هي الثقافة التي تكاملت فيها عناصر أربعة (اللغة، والمعتقدات، والقيم، والمعرفة) كما في الثقافة العربيّة، فاللغة حيّة وثريّة بمفرداتها، وبقواعدها، وبإمكانية مسايرتها لروح العصر، والمعتقد الديني موجود ولا يحتاج إلى تغيير أو تحديث، لسموّ مصدره وغايته، ولمناسبته لكل زمان ومكان، وباب الإجتهاد مفتوح على مصراعيه ولم يقفل، بل هو مطلوب على مستوى التفسير الذي يفترض أن يتناسب مع ظروف العصر، والنسق القيمي العربي لم يترك صغيرة ولا كبيرة من القضايا التي تتعلق بتنظيم حياة إنسانية سليمة الاّ تضمنها، لسمو مصدره، وهو الدين الإسلامي، دين الإنسانية، أمّا المعرفة فالتاريخ يشهد بإسهامات العرب في تطوير المعارف العلميّة. (عمرو وهدان، 2010م، ص119)

والثقافة العربية لا تنفك تتجدد ما وجد المثقفون المبدعون، والمحافظة على الخصوصيّة الثقافية واجب علينا، والخصوصيّة تعني التوازن في النظر إلى الثقافة الخاصة، والثقافات الأخرى، وهذا يقتضي رفض التبعية والانبهار الثقافي بالثقافات الأخرى ومحاكاتها، وهذا لا يعني التغني بماضينا وإغلاق الأبواب، وإنما الانفتاح والتواصل مع ايقاظ شبكات الأمن والأمان لمجتمعاتنا. (عمرو وهدان، 2010م، ص120-121)

7 . 3 المحاور التي تتحرك فيها الهوية الثقافية:

الأول: الفرد داخل الجماعة الواحدة، قبيلة أو عشيرة أو طائفة سياسيّة.

الثاني: الجماعات داخل الأمة، وهي كالأفراد داخل الجماعة، ولكل منها ما يميزها داخل الوطن.

الثالث: الأمّة الواحدة مقارنة بالأمم الأخرى، وتتسم هذه بالشمولية والاتساع.

وتبعاً لذلك تتشكل مستويات الهوية الثقافيّة: الهوية الفردية، والهوية الجماعية، والهوية الوطنية أو القوميّة، والعلاقة بين المستويات ليست ثابتة، تتغير حسب الظروف، وتحركها المصالح الفردية والجماعية والوطنية.

وتظل هويتنا الوطنية بإطارها القومي وظروفها المحيطة راسخة على أرضية صلبة، رافضين الإنغلاق والإنعزال والتقهقر، مجدين ومجتهدين في الدين والثقافة والأيدلوجيّة، منفتحين متجاوبين مع الحضارات الإنسانية.

7 ـ 4 التحديات الثقافية الراهنة:

من أهم التحديات التي تواجه الأمّة العربيّة التحديات الثقافية التي تحاول العبث بقيمهم وتاريخهم وتراثهم ودينهم، ولعبت القنوات الفضائية دوراً مهماً، وعمل هذا الإعلام الموّجه على ترسيخ ثقافة الدول المهيمنة والمتقدمة دون مراعاة للدول النامية من حيث ثقافتها وظروفها الاجتماعيّة، وبناء عليه فالمجتمعات العربيّة والدول يقع على عاتقها تعزيز الأمن الثقافي والسياسي والاجتماعي، وتحديث هياكل البيئة الأساسية للإعلام وتطورها من خلال تلك التجهيزات الضخمة والمعقدة، وتوفير الكادر البشري الذي يدرأ الآثار الضارة الذي تمارسه الدول الكبرى من خلال شبكاتها المتطورة. (نسمه أحمد البطريق، 2004م، ص23)

وحتى يؤدي الإعلام دوره بإيجابية، فلا بّد من مواكبة قضايا الأمّة والدفع باتجاه تحقيق الأهداف الوطنية بشكل دقيق ومدروس، والمراقب لمجريات الأحداث على الساحة الفلسطينية يلحظ يقينا قيمة وسائل الإعلام، وأثرها في توجيه الشارع الفلسطيني، والشعوب العربية التي هي بالتأكيد أكثر من غيرها تأثراً بالإعلام لما تتميز به من عواطف جيّاشة.

ولنقف مع أنفسنا ونقول: إن العولمة أصابت الإعلام فتعولم هو الآخر، فمعظم المادة الإعلاميّة أصابتها روح العولمة بأهدافها المشينة، وأصبحت طعاماً فاسداً للمثقفين وغيرهم، فالعملية الاستشهادية تنعت بالانتحارية أو الإرهابية، أو التخريبيّة. (يحيى جبر وعبير حمد، بحث منشور، 2009م، 8ص)

ونحن الآن أمام فيض من الرؤى الأيديولويجّة للمثقفين العرب تجاه العولمة، وهناك حالة انفصام فكري بين الواقع والفكر العربي بمختلف اتجاهاته، ولقد دفعتنا الاعتبارات الفردية الى معارك نواجه فيها الخصوم بدلاً من تحليل الظاهرة، وتفكيكها، وتحليلها بصورة موضوعيّة، لبناء منظومة معرفيّة تساعد في تعزيز إمكانيات الثقافة العربيّة في صدامها مع أخطر مراحل تطور المجتمعات الإنسانيّة. (عمرو خاطر عبد الغني وهدان، 2010م، ص38)

وعندما نتحدث عن الثقافة، لا نقصد بها الثقافة المكتوبة أو الثقافة العالمية فحسب، بل نأخذها بالمعنى (السوسيولجي) الذي يرادف معنى الحضارة والهوية، من حيث هي مستودع الإدراكات والمشاعر والرموز والفعاليات الاجتماعية والسلوكية أي من حيث التعبير المنظم عن الاجتماع المدني والديني ويستطيع العرب مجاراة التحديات الثقافيّة في كثير من الحقول المتعلقة بالزراعة والنفط والطب والبناء وغيرها، لكنهم عاجزون عن مجريات التقنية في مجال هندسة الجينات وثقافة المعلومات في الفضاء.

يقول الدكتور (هربرت شيلر) في كتابه (المتلاعبون بالعقول): إن تدفق المعلومات في المجتمع العربي هو مصدر لسلطة لا نظير لها، وقالت وزيرة الخارجيّة الأمريكية إن مجلس الأمن يتكون من خمسة عشر

عضواً في الجمعية العامة، والعضو السادس عشر هو محطة (السي أن أن) (CNN). (فلاح كاظم المحنة، 2002م، ص207)

وهكذا تتعرض منطقنا العربيّة وفلسطين على وجه التحديد لهجمة ثقافية ممنهجة، ترمي لإبعاد فكر الانسان عن وطنه، وإبعاد الأخ عن أخية، وترمي المخططات الثقافية لسلخ الإنسان عن وطنه وأهله، ويصبح لقمة سائغة تتلاعب فيها الأهواء.

وفي حالة الوهن التي تعيشها الثقافة العربيّة، يأتي المشروع الإسرئيلي للنظام الإقليمي الشرق أوسطي بما يتضمنه من تطبيع ثقافي مع إسرائيل، وعبر عنه شيمون بيريس بأنه سوق مشتركة وهيئات مركزيّة، وهذه الرؤية لا تنفي الجانب الثقافي الذي سوف يمهد للنظام السياسي، ويتفق هذا الخطاب الثقافي الإسرائيلي في جوهره مع الاتجاه الداعي إلى عولمة القيم، وترسيخ حاله ذهنية أو سيكولوجيّة لدى العرب تجعلهم بلا تاريخ، ولا هوية قوميّة وطنية. (سامي نصار، 2005، ص197)

والتحدي الأكبر الذي يواجه أمتنا نفي ثقافتها، وتنادي الغرب بأنانية الثقافة الغربيّة وتأصيلها على أنها أهم الثقافات عالمياً، فها هو المؤرخ الأمريكي (دانييل ج) يقول: الولايات المتحدة هي الشعب الأول في التاريخ الذي امتلك ثقافة شعبيّة منظمة مركزياً ومنتجة جماهيرياً، فماذا عن ثقافتنا الشعبية؟ أين نجدها؟ (أمان ماتلار، 2008م، ص79)

لقد بلورت ثورة المعلومات، وظهور الإعلام العابر للقارات، نظرية سياسية عسكرية،عنوانها (الاحتلال عن بعد)، ومستشار الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش (ريتشاردهس) من أتباع السيطرة على العالم في القرن المقبل من خلال السيطرة على الإعلام، ويقول: إن تجربة حرب الخليج تشكل نموذجاً يحتذى به، ومثل ذلك يقول (جوزيف ناي) أمين عام وزارة الدفاع الأمريكية (الدولة الأقوى هي التي تتبوأ ثورة الإعلام)، ويضيف (روشكوف): إن مصلحة الولايات المتحدة إذا تواصلت أطراف العالم عبر الراديو والتلفاز والموسيقا، أن تكون القيم الأمريكيّة هي قيم العالم المشتركة. (فلاح كاظم المحنة، 2002م، ص235)

7 . 5 رؤية نقدية لثقافتنا من العولمة:

القبول بالعولمة لا يعني نفي الذات، ولا جلدها، والرفض لا يقتضي مصادرة حق الآخر ونفيه، وهذان التصوران القائمان لا يحققان شيئاً من التعامل الايجابي، فالعولمة حقيقة قائمة، والمتلقي نحن والمقصود أنا وأنت، والغرب يطرح المصطلحات، ويخالطها الخير والشر، وعلينا أن نقبل بما لا بدّ منه، وندفع بالتي هي

أحسن ما لا يتفق مع سياقنا الحضاري، وأرى أنه لا بدّ من معرفة الأمور التالية:

أولاً: الثقافة العربية تعاني من حالة مرضية، ومع ذلك ففيها من الإيجابيات والأخلاقيات التي تجعلها تقف على رجليها وتدافع عن نفسها.

ثانياً: العولمة ليست رسالة إنسانية خالدة، وهي في مسيرتها المعروفة لا تعمل على تعزيز الديمقراطية وتحقيق الحريّة والقيم، وهي تغرس قيم الإرهاب والرّعب وتحافظ على أنظمة التسلط والاستبداد التي تحافظ على بقائها، وتعمل على إقفار المجتمعات العربيّة وتذويبها ثقافياً وحضارياً وأخلاقيا، وتعمل على نشر الطائفية العشائرية، والتسلط، وغياب حقوق الإنسان، وسيطرة العقلية التقليديّة على نطاق ضيّق في الأوساط العربيّة.

العولمة الثقافية سلاح يرمي بالثقافات الضعيفة أرضاً، ولكي نخرج من هذا المازق وتداعياته لا بدّ من بناء الروح النقديّة، وإرساء أسس الفاعلية الفكرية، ومواجهة الحقائق بالتحليل والتفكيك والبناء، الذي يقف سَدا منيعا لمنع الاختراق الثقافي الذي يفوق الاختراق الأمني، والشأن الثقافي لكل أمّة هو الذي يحدد بقوة ملامح هويتها، والذي يمتد ليشمل عقيدتها ولغتها وتراثها.(عمرو خاطر عبد الغني وهدان، 2010م، ص39-43)

8ـ كيف نتحدى العولمة؟

في ظل الظروف التي تحيط بنا، وثروات الربيع العربي التي ساهمت في ترسيخ مبادئ العولمة، فالتفكك والشرذمة عنوان مجتمعاتنا العربيّة، والحروب الدائرة هنا وهناك، جعلت الإنسان العربي والدولة لا تستطيع أن تفكر إلاّ بنفسها وثباتها، ولكي نحد من زحف العولمة، فلا بدّ من المواجهة الشاملة مع أعداء أمتنا، وذلك من خلال:

أولاً: ايقاف التطبيع الثقافي:

تحاول الولايات المتحدة أن تحصد بالسياسة والدبلوماسيّة ما لم تحصده بالحروب العربيّة الإسرائيلية، ومن المؤسف ان السلام السياسي ترافقه فاتورة ثقافية وإعلاميّة ينبغي دفعها فوراً، وتتلخص بأن يحذف العرب من وجدانهم وتاريخهم ودينهم وثقافتهم كل ما يعادي أمريكيا والغرب وإسرائيل، وكل ما يدعو للرجولة والبطولة والجهاد وكل ما يهيب بالإنسان التمسك بأرضه وعرضه ومصالحه، وربطت الإدارة الأمريكيّة مساعداتها بتنقية المناهج التعليميّة مما وصفه التقرير (بالمفاهيم الدينيّة البالية)، مثل: معاني القتال في القرآن الكريم والجهاد وغيرها.

إن الواجب يدعونا نحن العرب إلى إيقاف التداعي أولاً من خلال ايقاف المخططات الثقافية السابقة الذكر، ومنع تعميمها وانتشارها أو تداولها، واستحضار ذاكرة العربي الغنيّة بالقيم والمثل التي تمثل كبرياء العرب.(فلاح كاظم المحنة، 2002م، ص276)

ثانياً: الانتماء الثقافي والوطني:

تعرضت البلاد العربيّة لعدد من القوات الغازية خلال الحقب التاريخية، وتضافرت تلك الشعوب أو حافظت على هويتها الثقافية، وحمتها من الذوبان في ثقافة الغزاة، ومطلوب منا الحفاظ على الإرث الثقافي والديني، وتبني القيم والمثل التي كبرت في نفوس أجدادنا. (محيي محمد سعد، 2006م ، ص118)

ثالثاً: تعزيز الأمن الثقافي والسياسي والاجتماعي للدول العربية وصيانة قيمها الحضارية، فنعيد بناء البنية الأساسية الإعلاميّة للحد من الآثار الضارة للاحتكار الدولي الإعلامي، والعمل على إعادة الثقة بقيمنا، وإبعاد شبح التبعية من نفوس أبنائنا.

وتؤكد الأحداث الجارية في فلسطين حجم المؤامرة على القيم الحضارية العربيّة الأصيلة بربط العديد من الأحداث الدائرة والمشروعة للدفاع الفلسطيني عن الوطن والأرض بالإرهاب والتخلف ومحاولة ترسيخ مغالطات ترتبط بالحضارة العربيّة في فكر الرأي العالمي من الشرق والغرب.

رابعاً: القضاء على فكرة الإختراق الثقافي والفكري، وتحقيق ديمقراطية الاتّصال بين مجتمعات الدول المتقدمة في العالم والدول الناميّة، وتحقيق التوازن الإعلامي في ظل النظام الجديد، وهذا لا يتأتى إلاّ من خلال منظومة إعلاميّة مدروسة ومنظمة.

وهذا يحتم على العرب إقامة جبهة دفاعيّة هجوميّة في معركة الثقافة والفكر، سيكون لها الأثر في تلك الحرب الدائرة والمستمرة، والتي تشترك فيها وتنفرد دول الغرب المتقدم، باستخدام تفوقها في صناعة الخبر والبرامج المتنوعة من دراميّة ثقافية وسياسية. تؤثر سلباً على الأمن الثقافي والقومي، وتؤثر على الفرد بمقوماته الثقافية والفكريّة اللازمة. (نسمة أحمد البطريق، 2004م، ص24)

خامساً: إحياء التراث العربي وتجديده:

يحاول أعداء العرب تهميش دور الدين والقوميّة واللغة في حشد العرب حول قضاياهم واتحادهم، وبث سموم الفرقة بينهم وتيئيسم والزعم بأن اجتماع العرب مستحيل، ونسي هؤلاء المشككون أن العرب مروا في مراحل تاريخهم الطويل بحالات الازدهار مثلهم كمثل أي أمّة أخرى كالألمانية والرومانية والصينية،غير أنهم لا زالوا يجتمعون عند لغتهم، يتحدثون بها ويقيمون الندوات والمؤتمرات، ويطول ذلك كل فئات الشعوب العربية، ولا زال العربي يؤمن بالقوميّة العربيّة التي لم تصل إلى حد القطيعة بين الشعوب العربيّة، فالشعوب تدرك أن الضعف بسبب الصراعات، اذن فالقومية سليمة واللغة بحمد الله كذلك، وكلنا لمس ما آل إليه حال العرب

والمسلمين بعد التفكك والانهيار الذي أصاب الأمة والتضامن العربي سياسياً بعد ضرب البنية التحتية في العراق وتخريب آبار النفط في الكويت وتدمير دولة الكويت، والهدف هو إضعاف العالم الإسلامي والعربي، والتواجد في الخليج خوفاً من استخدام النفط للضغط على الدولة المستوردة للكف عن مساعدة اسرائيل كما أن السلام الاسرائيلي الفلسطيني بتفصيل أمريكي، يأتي ضمن تثبيت دولة اسرائيل داخل النسيج العربي الإسلامي(صبري محمد حمد، 2008م، ص108)، والعمل على قيام علاقات طيبة بينها وبين الشعوب المجاورة. ولكن ومع التأثير السلبي لمجريات الأحداث في المنطقتين إلاّ أن رباط القوميّة والدين كفيل أن يلأم الجراح وتحقيق المصالح العليا للشعوب العربيّة.

وكثير من الأفراد من دول الغرب نفسها، تنضم إلى رابطة الدين، وهذا الفئة الصابرة تدافع عن قضايا التراث العربي أفضل منا، إنها قوة من الغرب لنا ولعروبتنا ولديننا.

9 ـ كيف نتصرف أمام تيار العولمة؟

تعدّ العولمة شكلا من أشكال الرعب الذي ينخر كيان الأمّة وذاتها وهويتها الحضاريّة، وللعولمة بعدان: الأول يتمثل في الانجذاب بكل قوة نحو الآخر، وإخراج الكيانات الصغيرة عن مساراتها فيستحيل الأمر، وهذا يعني الاستغراق في الآخر، وستبدو معه ملامح الخصوصيّة مهددة بالزوال.

أمّا البعد الآخر فيرى فرصة معرفية ولا بدّ من الاستفادة منها، والأخذ بأسباب تقدمها وتفوقها، وهذا الفريق يرى العولمة تعبّر عن روح العصر.

إن التصورات الناجمة عن ارهاصات العولمة الثقافيّة وتجلياتها، تؤكد أنّ العالم يتعولم من خلال تعاطيه لأدوات العولمة والتجارة الإلكترونية والهاتف النقال والإنترنت، ومن خلال تفاعله مع قيم ظاهرة العولمة وإفرازاتها، يتنازل إرادياً عن خصوصياته الثقافية، ويتشرب تدريجياً العولمة في السينما والتلفاز والانترنت لقهر الثقات الأخرى، (كاظم مؤنس ، 2008م، 48) ولكن أصول التراث العربي ثابتة كالصخر، تتحطم عليها كلّ المؤامرات.

وتؤثر متابعة الشباب للثقافة الأجنبيّة في بعض المظاهر الاجتماعيّة في ثقافة الشباب، ويتمثل أهمها في ضعف العلاقات الأسرية، وزيادة نسبة الإدمان، ونسبة الزواج العرفي، وزيادة الإنحرافات، وتتعدد مظاهر ضعف العلاقات الأسرية، وإقامة علاقات بديلة عن طريق الانترنت أو الجلوس أمام الفضائيات فترة طويلة. وتؤثر العولمة في تفضيل الشباب لأشكال عديدة من التحرر على غرار الشباب في المجتمعات الغربيّة، تتمثل في اختيار شريك الحياة، واصطحاب أصدقاء، وصديقات من الجنس الآخر، والتحرر في الملبس والمشرب،

والتدخين، وتناول المشروبات الكحولية، وزيادة انفلات الشباب من القيم والمعايير الاجتماعيّة والدينيّة، بالإضافة إلى زيادة تفضيل نسبة الهجرة خاصة إلى الدول الأجنبيّة بعد الاعجاب بنماذجها الثقافيّة، إلى جانب ذلك هناك آثار إيجابيّة منها: المنافسة، وتوفير السلع المستوردة بسعر أقل وتحسين المنتج المحلي. (محمود عرابي، 2006م، ص170)

لقد أرست العولمة تشكيلاً ازدواجي الأبعاد متبوعاً بسجال فكري شديد، بعده الأول يدعو إلى التمسك بالهوية الثقافية فيدعو للانكماش بدلاً من الانفتاح ويرفض دلالاتها الاستغلالية ومضامينها الاستهلاكيّة من أجل حماية محليته فيرى أن إحياء التراث هو المخرج الأكثر إلحاحاً في مواجهة الحضارة الغربيّة، والحفاظ على الهوية الثقافيّة والأصالة والمعاصرة، والآخر فتح الباب، وتقبل العولمة بكل ما تحمله .

وباب الاجتهاد مفتوح، ولا يجوز أن يظل فقهاؤنا منشغلين في قضايا غير ذي قيمة أو تأثير في حضارة الأمّة أو وجهتها الفكريّة والثقافيّة، فالفقه الإسلامي يقبل التجديد والاجتهاد، وليس أدل على ذلك من مساءلة الرسول الكريم محمد– صلى الله عليه وسلم– للصحابي معاذ بن جبل عندما عينه حاكماً لليمن. قال: صلى الله عليه وسلم، بم تحكم يا معاذ؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد، قال: بسنة رسول. قال: فإن لم تجد: قال اجتهد. فقال رسولنا عليه وآله الصلاة والسلام. خيراً فعلت يا معاذ.

ونحن اليوم أحوج إلى الاجتهاد في مسائل تحكم السياسة والاقتصاد والتكنولوجيا وغيرها. والفقه الإسلامي يراعي الشعور الإنساني والأحاسيس والمشاعر والظواهر والأحداث والخطوب.

الخاتمة

فيما مضى استعرضنا سريعاً الواقع العربي والفلسطيني ضمن ظروف العولمة، ووضحنا حجم المخاطر الملقاة على الأمة، ويمكن القول إن الدراسة محاولة لتركيز الضوء على مقومات الهوية العربية وما تتعرض له، وبالرغم من التشتت وضبابيّة الرؤية إلاّ أن الأرضية الإرثيّة وتصميم المفكرين العرب المبدعين، وما لدينا من إمكانات ومقومات كفيلة بدرء الخطر الداهم، ونحن على يقيين أنّ مسيرة بناء وطن سليم معافى قادر على مقاومة أعدائه، وبناء مستقبل أجياله قادمة لا محال.

تعدّ العولمة ظاهرة من الظواهر التي وجدت حديثا، إثر التقدم في مناحي الحياة المختلفة، وأخذت تؤثر على كيان الأمّة، وذاتها، وهويتها الحضاريّة، وللعولمة بعدان: الأول يتمثل في الانجذاب بكل قوة نحو ظاهرة العولمة، والاستغراق في الآخر، وهذا يهدد الملامح الخصوصيّة بالزوال.

أمّا النظرة الثانية فترى أن العولمة فرصة معرفية ولا بدّ من الاستفادة منها، والأخذ بأسباب تقدمها وتفوقها، وهذا الفريق يرى التقدم والنمو مظهرا من مظاهر العولمة.

وتوصل الباحثان إلى النتائج التالية:

1. تُحارب اللغة باعتبارها حاضنة للثقافة والتراث والدين، وهي لغة التواصل ووسيلة حفظ التراث.
2. تتمثل الآثار السلبية للعولمة في محاولة طمس الهوية الوطنية، ونشر ثقافات مخالفة، وتهميش دور الدولة، وغياب ضوابط السلوك أدى إلى ظهور أنماط جديدة من العلاقات سلبا في الجوانب الثقافية، والاقتصادية، والاجتماعية، والتعليميّة.
3. تعمل العولمة على سحق الثقافة الوطنية والحضارية للأمة، وخلق حالة اغتراب بين الفرد وثقافته من جهة وبينه وبين شعبه وأمته من جهة أخرى، وبذلك تتوارى الرؤى الوطنية خلف ظاهرة العولمة.
4. السيطرة على الإنسان فكريا وثقافيا ضمن حدود القوة والضعف، ويتم بذلك انسلاخ الإنسان عن ذاته.

وغياب الشخصية الوطنية والهوية، وتذويب الخصوصيّة الفرديّة والتغني بثقافات الآخرين، ونسج حواجز الاغتراب بين الإنسان وأبناء جلدته.

ويوصي الباحثان بما يلي:

1. لرجال الفكر والثقافة دور كبير لمواجهة العولمة تتبلور في إقامة الندوات والمؤتمرات، وتسييج الثقافة والرقابة على وسائل الاعلام.

2. توصي الدراسة بمعرفة كلّ فرد مسؤولياته بالحفاظ على المبادئ والتقاليد ودعم وسائل الاعلام وإصلاح ذات البين ومراعاة حقوق الآخرين.

3. تنمية الوعي بالقواسم المشتركة بين الثقافات، وإقامة جسور التواصل والتحاور الثقافي ومواجهة خطر العولمة الثقافية، لا يكون الاّ باستنارة عقول نيرّة، وبناء تربوي سليم.

4. وضع رؤية تتضمن الجوانب الخاصة بالشباب كافة (الجانب الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والمهني والتعليمي والديني والنفسي) مما يكفل عدم تعرضهم لجوانب العولمة السلبية ومؤشراتها السلبيّة.

5. أن تلتزم المؤسسات الحكومية وغير الحكومية بأن تكون اللغة العربية هي المستخدمه في جميع الوثائق المختصة لإعلام المستخدم أو المستهلك: الملصقات، الكراسات، المنشورات الدعائية، الكتلوجات، الكتيبات الإعلامية ايصالات التسلم والتسليم،وشهادات الضمان.

6. وضع المجتمع المحلي في خضم إشكالية اللغة، والحفاظ على الموروث الحضاري والديني، وإظهار مشكلة المساس بالأمن بشتى أنواعه عند الاستخفاف أو الاستهزاء بلغتنا الأم، ونفرض على المؤسسات المجتمعية أن تكون قوائم وجبات الطعام باللغة الأم، والفواتير، وبراءة الذمّة، وإيصالات الدفع، وتذاكر التنقل، وعقود التأمين والإيجار، وإيجاد برامج عربية للحاسوب، وكل ما يتعلق بالأمور الحياتية فهي تحمي الأمة وتحافظ على شخصيتها وهويتها في عصر العولمة، ورياح التغيير المقبلة.

المصادر

القرآن الكريم.

– ابن منظور: لسان العرب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، ط٢، ١٩٩٧م.

– ابن فارس، أحمد: الصاحبي: فقه اللغة العربيّة ومسائلها، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط١، ١٩٩٧م.